

البدو في حِلِّهم وترحالهم (*)

د محمد المرزوقي

قراءة نادر سراج

إن المعطيات الأساسية للدراسات التراثية الشعبية تهّم الباحث الأنثروبولوجي تماماً كما تهّم علماء التاريخ والآثار والاجتماع وعلم النفس والألسنية وسواهم... وهي من خلال تقاطع الاهتمامات هذا توفر مادة خصبة للدراسات الإنسانية الحديثة التي تتشارك جميعها في السعي لفهم جدليات علاقة الإنسان بالعمران ثقافةً واجتماعاً ولغةً واستشراقاً.

من هذا المنظور بالذات، تكتسب دراسة الباحث محمد المرزوقي «مع البدو في حلِّهم وترحالهم» الصادرة عن الدار العربية للكتاب عام ١٩٨٠، في ثلاثمائة وتسع صفحات، أهميةً لجهة توسلها هذا الموضوع البحثي للوصول إلى معرفة كنه المجتمع البدوي في الجنوب التونسي، كما لجهة سعيها تالياً للكشف عن مدى تطور عقلية هذا الاجتماع البشري وعقائده وعاداته. إلى ذلك عمد الدارس إلى تتبع أصول تلك العقائد والعادات والأنماط السلوكية، العفوية والمؤشّرة في آن، هؤلاء البدو بهدف رصد ارتباط السلالات البشرية ببعضها في عقليتها وتفكيرها وأخيلتها، أي بطرائق انتظامها العقلي والاجتماعي الثقافي.

يعرض الكاتب في مقدمة كتابه للأسباب التي دعت به إلى مقارنة موضوع مماثل، مجيباً بالتالي على التساؤلات التي طُرحت وتُطرح عادة، حول أهمية رصد السلوكات والأدبيات المعاشة في حياة الشعوب أو أجزاء منها.

(*) محمد المرزوقي: البدو في حلِّهم وترحالهم. الدار العربية للكتاب، تونس/ليبيا، ١٩٨٠.

أما لجهة تخصيصه البدو دون الحضري في بحثه، فالأمر يعود لتوافر غير مرجع في هذا الصدد، كما لسهولة استحضاره تقاليد بادية الجنوب في ذاكرته لاسيما وقد قضى فيها رداً من طفولته ولما ينقطع عنها.

وفي إشارة لاقتصار اهتمامه على جنوب البادية دون سواه، يوضح الكاتب أنّ ظروفًا خاصة حالت بينه وبين الرغبة في شمولية هذا العمل البحثي، مقترحاً محدودية الاختلافات بين تقاليد الأرياف وغيرها من الجهات الأخرى، وكان الحري به أن يمثل لذلك أو يحيلنا على المراجع المختصة.

ولا يدّعي المؤلف أنه قد ألم بكل تقاليد جهات الجنوب التونسي، الذي اراده مسرحاً أساسياً لدراسته، بل يوضح أنه اقتصر على ما عرفه هو شخصياً أو مارسه من تقاليد قبائل المرازيق، والعداري، والصابرية، ونويل، وغريب من معتمدية دوز، وأولاد يعقوب من معتمديه قبلي، وبني يزيد من معتمديه الحامة، وكلها من ولاية قابس، ويفترض تالياً - وهذا الافتراض قابل للنقاش ولاسيما في بحث ميداني مماثل - أن تقاليد البدو في بقية جهات الجنوب، لا تكاد تختلف في خطوطها الكبرى عما ذكره سالفاً.

ويسجل المؤلف اندهاشه لاكتساح الحضارة السريع لجميع مظاهر البداوة وتقاليدها، وصولاً إلى اختفائها بعد استقلال تونس، مشيراً إلى التحول الذي أصاب البدو في تلك المناطق ونزوعهم نحو الاستقرار في القرى، ناهيك عن ممارستهم للمهن الحضرية، وإرسالهم أطفالهم إلى المدارس. ويستخلص الكاتب أنّ كل هذا التحول السريع كان له الأثر البالغ في اختفاء التقاليد القديمة، ما عدا البعض من ملامحها الباهتة، التي يعتقد أنها ستؤدّن بدورها بالاختفاء مع رحيل الجيل القديم. لهذه الأسباب مجتمعة، جمع الباحث مواد هذا الكتاب، منذ تقاعده (١٩٧٦) وأنهى تأليفه عام ١٩٧٧.

أما لجهة ترتيب الكتاب، فقد اعتمد ترتيباً يتصل بمراحل سن الإنسان البدوي؛ من الطفولة وحتى المات. من هنا جاء الكتاب في عشرة فصول تمّ عبرها استعراض التقاليد المعروفة عند البدو وهي: الطفولة، والتعليم،

والألعاب، والزواج، والنجعة، وموارد العيش، والمعتقدات، والأعياد والمواسم، والأمراض وأدويتها، والوفاة. أمّا الختام، فاشتمل على عرض لأثاث البدوي في الخيمة، وفي القرية، واللباس بنوعيه النسائي والرجالي، وصناعاته، وآلاته، وأدوات ركوبه، وزراعته، وما شابه...

إلى ذلك، ألحق بالكتاب بعض الأمثلة والأحاجي، والرموز والأساطير المتداولة في أوساط البدو. وفي عرضنا لمادة الكتاب، سنتوقف بعض الشيء عند الفصل الأول الذي يرصد مرحلة الطفولة، ومن ثم نستعرض بسرعة مضامين الفصول التالية وصولاً إلى الخاتمة فالاستنتاج.

طفولة بدو الجنوب نعيش مراحلها في الفصل الأول الذي يستهله الكاتب بـ «أيام الحمل» لافتاً إلى أنّ الحامل لا تُعامل معاملة خاصة من قبل زوجها والأهل، بل تستمر في أعمالها العادية حتى ولو كانت شاقة، وإذا ما فاجأها المخاض أثناء العمل، تلد ثم ترجع إلى عملها (ص ١١). أما «الولادة»، فتقاليدها تتصف بالبساطة، وفي حال ازدياد الأوجاع، تؤمر المرأة بالاستنجاد بأولياء الله الصالحين. فإذا كان المولود ذكراً، تُطلق الزغاريد، وتليها كلمات التهنية التقليدية (مبروك الرأس) وهو في مفهومهم الرجل الشاب. أما المولودة الأنثى فلا يُهنأُ بقدومها، بل تقتصر التهنية على (الحمد لله على خلاص راسك)، أي أن التهنية للأم تكون لخلاصها من الأوجاع (ص ١٣) و«التسمية» لا تخرج عن نطاق المعارف عليه من إطلاق أسماء الأجداد وأحياناً الآباء، ولكن الملفت هو استشارة المؤدب - الذي يحسب الأبراج مختاراً الاسم الذي يناسب إحدى بروج الخير - وهي عادة لا يؤمن بها إلا بعض الجهلة من العوام وجلّهن من النساء (ص ١٥). وتتابع الطقوس، فمن «اليوم السابع» إلى «الأربعون»، فـ «صدقة المؤدب»، فـ «الربّاح» وهي أغاني هدهدة الأطفال التي تتنوع كلمات وإيقاعات ومضامين. منها ما يُمدح فيه والد الطفل (الفروسية والكرم)، أو الطفل (الشجاعة والكرم والثروة). أما هدهدة البنت فغالباً ما تقتصر على جمالها والتمني أن تقترن برجل من عليّة القوم (ص ٢٠). يلي هذه المراحل، «النظام» و«الختان» وحفلاته والتقاليد المرعية التي تصحبها عادة أغان مناسبة. وبدورها تشتمل

«التربية الاجتماعية» على تقاليد معينة تُراعى في تربية الأطفال وهي: الحشمة، والشجاعة، والصبر، والثأر، والكرم. والطريف أنهم يُدخلون في خلد الطفل أن السقوط عن الجمل لا ضرر فيه، لأن الجمل كالفرس يدعو لراكبه بالسلامة ويقال عند سقوط الراكب: «النبيء النبيء»، طيحه مُحَمَّدٌ تَلَقَّاهُ عَلِيٌّ. فبركة الرسول حاضرة في حال سقوط الراكب وإلا فبركة الإمام علي. ويلاحظ الكاتب أن اسمي محمد وعلي هما المترددان دائماً على ألسنة القوم، معتبراً أن ذلك عائد إلى عقيدة شيعية بقيت لديهم آثارها من أجدادهم (ص ٢٧).

في الفصل الثاني يعرض الكاتب لموضوع التعليم، فيبحث في: «عمر التعليم» وهو الخامسة أو السادسة عندهم وفيه يُدفع الطفل إلى مؤدب الصبيان بالكتاب القرآني (ص ٣١). ثم «لوازم التعليم» ف«طريقة التعليم»، وتتصل أساساً بثقافة المؤدب ولا تخرج عن تحفيظ القرآن (ص ٣٢). أما «الختمة»، فتأتي في نهاية تحفيظ كل ربع، وتستعمل من قبل المؤدبين أحياناً استدراكاً للهدايا (ص ٣٥). وبعد الكلام عن «هدايا الختمة» و«ختمة البقرة» التي تترافق مع احتفال خاص (ص ٣٤)، نصل إلى «المؤدبون» وهم من حيث الأخلاق نوعان: منهم المزمتمون وهم يخلصون في أعمالهم على قدر تكوينهم الثقافي (ص ٣٥)، والنوع الثاني شرذمة من الطماعين يكثر من (الختمات)، ويكتبون التثائم للنساء والمرضى من غير معرفة ولا استناد (ص ٣٦). ويسترسل الكاتب في عرض موضوعات الفصل الثاني وهي على التوالي: «أوقات التعليم»، و«العطل»، و«حفلات الأعياد»، و«العقوبات»، و«البشارة»، و«تعليم البنات»، ف«التعليم العالي».

أما الفصل الثالث فيشتمل على استعراض لمختلف الألعاب الشعبية التي يعرفها بدو الجنوب صغاراً وكباراً، وعلى تشارك أحياناً، فيسهب في شرح أصولها وقواعدها مستعيناً بالرموز الكلامية كالتعابير، والنداءات، ومتمماتها من الرموز غير الكلامية كالحركات المناسبة والمرافقة.

الفصل الرابع حمل عنواناً هو «تقاليد الزواج»، ويشير الكاتب إلى أن هذه التقاليد تعود إلى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، إذ إن الاستقرار الذي داخل

حياة البدو بدّل في تقاليدهم واقتصر على اللازم منها. ويسرد الكاتب بعضاً من هذه التقاليد كالخطبة والعقد وحفلات العرس بأيامه الأربعة... وسواها. ويثبت في نهاية الفصل الألعاب التي يمارسها العرّاسة، وهم أصحاب العريس وأصدقائه إضافة إلى الأغاني التقليدية للعرس.

الفصل الخامس خُصّص لتقاليد النجعة والانتقال من مكان إلى آخر والتي اندثرت بدورها بسبب الاستقرار والاطمئنان إلى مظاهر التحضر التي جاءت مع الاستقلال. وما يستوقف القارئ هو السمر ومجالسه، والصيد وادواته، والقافلة وما يواكبها من حداء، والغنم والألبان ومشتقاتها..

موارد العيش بأفانيمها الثلاثة الكبرى: الفلاحة والتجارة والصناعة. ورد الكلام عنها في الفصل السادس على تفصيل وعرض لاغاني المطر والحصاد وذكر لمختلف الأطعمة التي كانت معروفة سابقاً.

الجانب الاعتقادي الروحي حلّ في الفصل السابع تحت عنوان «معتقدات»، وتراوحت أقسامه بين «الأولياء الصالحون» الذين يترسخ الاعتقاد بهم في القلوب، الأمر الذي أدى إلى تعاظم عددهم وامتلاء أرض الجنوب بقبابهم وأضرحتهم وزواياهم؛ وبين «التارقة» وهي ضرب من ضروب الكهانة وقراءة الغيب لأشكالها رسوم وأسواء وأقوال موقعة مصاحبة. وبلي ذلك أسطورة «خسوف القمر» وأخبار «الجن» و«العبثة» وهي ما يوازي «الغول» في معتقداتنا الشامية. أما «العيافة» فهي زجر الطير أو التكهّن بالغيب بواسطته، وأما الختام فكان «للقيافة».

«أعياد ومواسم» أهل البادية، التي اشتمل عليها الفصل الثامن، هي نفسها التي يعرفها سكان الحواضر من مثل «السنة الهجرية» و«عاشوراء» و«المولد النبوي» و«شعبان» و«رجب» وسواها... واللافت عندهم الاحتفالات التي تنظم في ذكرى «عاشوراء» وما يرافقها من أناشيد النذب والأغاني والرقصات النادبة. ويرى المؤلف أنّ هذه الاحتفالات من بقايا تقاليد الشيعة الفاطميين منذ تأسيس دولتهم في أواخر القرن الثالث، ثم رسخت في قبائل الجنوب عند أعراب هلال

وسليم إثر نزوحهم من الصعيد في منتصف القرن الخامس الهجري (ص ١٩٤). ويستدل على كلامه بأن أكثر ما يجري فيها نجده اليوم بذاته أو بما يقاربه لدى شيعة النجف بالعراق (ص ١٩٥). وكدأبه في سياق الكتاب، يورد المؤلف كلمات هذه الأناشيد بطريقة لفظها المعتمدة عند البدو، ويحاول تبسيط وشرح معانيها وتقريبها من أصولها الفصيحة. وينتقد الكاتب بعض الألعاب السمجة والوقحة أحياناً (لعبة القرد ولعبة الشابة مثلاً) التي تصاحب حفلات عاشوراء، معتبراً ذلك أمراً مستغرباً في البادية.

ويعرف بدو جنوب تونس «عيد سبعة أعياد» وهو غير مألوف في تقاليدنا الشامية، ويتصل باستعمال الفلاحين لحساب السنة الشمسية الأعجمية في مواسم الزراعة.

الفصل التاسع يقتصر على «الأمراض وأدويتها». ويسرد الكاتب فيه الأساء الحديثة لبعض الأمراض المعروفة لديهم، ومعتقداتهم في أسبابها، والأدوية التي يستعملونها لشفائها (ص ٢١٥).

أما الفصل العاشر فيركّز على «النهاية» أو موت البدوي بتقاليده وعاداته. والفصل يحفل بالأسجاع الموزونة للندب التي تستخدمها النادبات وبالأمثلة عليها. وهنا أيضاً تترافق الرموز الكلامية بتلك غير الكلامية، فتتساوق أصوات الندب برقصات الندب وبخمش الحدود بالأظافر.

الخاتمة خصّصت «للbas والأثاث والآلات». ويتأسف الباحث لعدم تمكنه من إدراج صور مصغرة عنها. ويتمنى أن تعمل متاحفنا القومية على جمع هذه الأدوات لتسهيل عمل الباحثين في هذا التراث مستقبلاً.

بين صنية التراث وتأليه بعض من طقوسه ومعالمه، وبين تغيبه في إدراج النسيان والإهمال تحت ذرائع التحديث والعصرنة، أتت دراسة المرزوقي، في المرتبة بين المرتبتين، لتسهم في ترسيخ حقيقة الجوامع النمطية المشتركة التي يحفل بها مجتمع البدو في قطر عربي شمال افريقي؛ جوامع يمكن أن تتردد أيضاً أصدائها وتجلياتها، على تناغم كما على تمايز، في أقطار عربية أخرى.

والفكرة التي ينتظمها الكتاب تعيد إلى الأذهان حقيقة توحد الجذور التراثية العربية عموماً، والبدوية تحديداً - على ندرة الكتابة حولها - وتؤكد عليها إن في النعمة أم في التشكيل أم في الايقاع أم في الكلمة.

وإذا كانت هذه الدراسة تشي ببعض التنوع في طرائق التعبير والأداء؛ فهو تنوع يفهم لا محالة كمحصلة طبيعية للاختلاف الجغرافي السياسي وصنوه الاجتماعي الثقافي للذين يعرفهما أي متحد اجتماعي حضرياً كان أو بدوياً.

وما يستثيره هذا المؤلف لدينا، يتمثل في الدعوة إلى اهتمام متزايد وعلمي وورصين، لا يعدم شفافية النظرة وديناميتها، بهذا القطاع التراثي الحي. والتوثيق والعلمية في هذا المجال شأن المؤسسات الرسمية والخاصة أكثر مما هو شأن الأفراد المهتمين مهما تعاضمت قدراتهم وإمكاناتهم. والمشجع أنها ترسخت وبخاصة في الأقطار الخليجية الشقيقة، ونأملها تعم سائر الأقطار.

لا غرور في أن أهمية القطاع الشفهي في ثقافتنا العربية الإسلامية وأصوليته وفعاليته في تكوين الشخصية العربية، وفي فهم أبعادها وتجلياتها على الصعيدين الفردي والجماعي، تحثنا على تجديد النظر في فهمنا للتراث، ومقارنته على أنه استيعاب وتجاوز لموروثاتنا الثقافية وسعي لتوظيفها في تفعيل الحاضر كما في استشراف آفاق المستقبل. فرومنسية مقاربتنا للتراث موضوعاً وأشكلاً وطرائق تعبير، وضبابية تعاطينا مع رموزه، واختلاف تفسيراتنا لها بحسب مواقعنا ومصالحنا، ينبغي أن لا تحجب عنا حقيقة أن هذا التراث لا يتمظهر فقط في رسم شاهد على الماضي التليد، ولا في حلية متأكلة تزين المعاصم والجدران. ولا هو يقف كذلك عند حدود مآل حزين وموقع يردد صدى السنين أوزي فولكلوري نستحضره من متاع الذكريات؛ وأخيراً فهو لا يتجسد بالطبع في قنطرة متهدلة نبكي ونستبكي على اطلالها أخبار ما فات من سالف الأيام. إنه تجاوز لترسبات الزمان واستيعاب لترجيحات المكان.

تلك كانت نظرة متساوقة لما حفل به هذا الكتاب من مضامين وتبويات واستقصاءات لكل مناحي الحياة البدوية في الجنوب التونسي. وبذا أمكن للقارئ

المهتم أن يتعرف على نمط حياة متميز ما يزال يطبع جزئياً معاش البدو. وإذا كان لا بد من كلمة نوجز بها عرضنا لهذا الكتاب فهي أنه أتاح لنا فرصة مواتمة للتأكيد على أهمية الموروثات الثقافية والاجتماعية للإنسان، كما على دورها في ترسيخ جذوره وتأسيس هويته. وإذا كان الكلام المعاش، وجلّ مرويّاتنا الشعبية يندرج في إطار هذا النمط من الكلام، لا يلجّ اللغة عادة من بابها الفصيح، فهو في الواقع لا يألو جهداً في تفسير العقلية وتبسيط تشابك العلاقات البشرية، ناهيك عن إتاحة فسحة حرية تعبيرية ومتنفسٍ عفوي لتهويمات الأفراد وتداعياتهم.